

A LITERARY STUDY OF SOCIAL THEMES IN MAQĀMĀT AL-ILŌRĪ

Jamiu Muhammad Yunus*

ملخص

من الفنون الأدبية التي غطاها الغبار الأدبي فنّ المقامات، فقد ركذ عصورا وحمد وهجّه زمانا لا يلتفت الأدباء إليه، لا في الدول العربية ولا في الدول المستعربة، لكنّ الظروف تغيّرت وأصبح الفنّ يستعيد نشاطه وينفض الغبار عن نفسه وبدأ ينال إقبالا من الكتاب والدارسين، خاصة في نيجيريا. عادت الروح إلى فنّ المقامات من جديد في نيجيريا وخصوصا على أيدي العلماء البيرويين وهم به مولعون لأسباب قد تكون لرسوخ أقدامهم في اكتساب الملكة اللغوية من جانب، وحب قصّ الأخبار من جانب آخر. والهدف الذي تسعى هذه المقالة إلى تحقيقه هو التعرف على مدى مطابقة مضمون المقامات كفنّ أدبيّ للقضايا الاجتماعية، وذلك من خلال دراسة أدبية لمقامتين من مقامات الإلوري. وتبنى هذه المقالة المنهجين الاستقرائي والوصفي للوصول إلى فاعلية المقامات كفنّ قصصي في الأدب النيجيري العربي، وتشتمل على مقدمة تتناول التعريف بفنّ المقامات وجولة قصيرة حول سيرها في الأدب العربي؛ والفصل الثاني يتحدّث عن المقامات في الأدب النيجيري العربي كقافلة لاجتماعية الأدب العربي في نيجيريا؛ والفصل الثالث يعرض خلفية مؤجزة لكاتب مقامات الإلوري وعرض مقامتين مختارتين؛ والفصل الرابع يتناول الدراسة الأدبية للمقامتين؛ ثمّ الخاتمة التي تعرض النتائج والمقترحات.

Abstract:

Maqāmah is a prosimetric literary genre very popular in Arabic literature and well accepted among scholars of literature across the Islamic world. It is a genre alternating rhythmic prose (sajʿ) and poetry as the narrative style in its presentation. The genre had been in deep and long hibernation until very recently, especially in Nigeria; the reason for its revival could be because maqāmah is a precursor to prosaic literary writing among Muslim scholars. The genre, among Arabs, used to be for demonstration of flowery ability to express literary contents; it is often short and ornamental but replete with moral themes. The genre is well embraced among Nigerian Muslim scholars of Yoruba extraction because it suites their folkloric heritage: the Yoruba culture of telling tales by moonlight to young children before dinner makes maqāmah very adaptive to their environment. The concern of this paper is to study the sociological themes in a collection of maqāmāt written by Muhammad Awwal bin Abdus-Salaam. Literature being a social document and prism through which society could be viewed in a very crystal manner; the study chose two maqāmahs for the purpose of discussing how the writer has succeeded in making his work a true reflection of his society. One of the maqāmahs discusses a national crisis that enveloped a state in the recent past where many lives were lost in Kaduna, with hoodlums hiding under religion to perpetuate the mayhem of catastrophic consequence. The other maqāmah has as its themes guidance and advice of Muslim scholars on how to get steady and sustainable means of income instead of hinging their survival on the society all in the name of being religion scholars. The paper concludes with a critique of literary styles of the writer to appraise its conformity with standard ways of writing maqāmahs.

مقدمة

المقامة لغة "... كلمة استعملت في القدم بمعنى مجلس القبيلة أي المقام وبمعنى القبيلة أيضا، والمقامة لغة من القيام". (الشريسي: 50) ويعرفها الأدباء بأنها "... شبه قصة قصيرة، تدور حول بطل وهمي يروي أخباره راوية وهمي أيضا؛ وبطلها رجل أحكم التحيل وقصر همه على تحصيل الطفيف من الرزق، فكانت أخباره كلها تدور

* Department of Arabic and French, Kwara State University, Malete. Email: yunusabatorun@yahoo.co.uk
basorunyunusa@gmail.com yunusa.jamiu@kwasu.edu.ng

حول الكدية والخداع، والاحتيايل والتمويه، لا تربطها وحدة موضوعية ولا تُحييها شخصية حقيقية. وهي ميدان لعرض النكتة وإظهار البراعة في التخلص من مآزق الحياة عن طرق ملتوية، وبنوع خاص لإظهار المقدرة اللغوية والأدبية." (الفاخوري: 731) وبعبارة أخرى، المقامة "...في الأدب العربي قصة قصيرة مسجوعة تتضمن عظة أو مُلحة أو نادرة، كان الأدباء يَتَبَارون في كتابتها إظهاراً لما يمتازون به من براعة لغوية وأدبية". (مجدي: 379) يبدو من التعاريف السابقة أنّ المقامة أطلقت على المجلس والقبيلة وفي الأدب العربي في الجاهلية ما يؤيد هذا كما أورد شوقي ضيف إذ قال: "ويقف الباحثون عند كلمة مقامات التي أطلقها البديع على قصصه ويتساءلون عن المعاني التي جاءت فيها قبله، وإن من يرجع إلى الشعر الجاهلي يجدها تستعمل فيه بمعنى المجلس، يقول زهير بن أبي سُلمى في بعض شعره:

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوهها وأنديّةٌ يتنابها القول والفعلُ
وإن جثتهم ألفت حول بيوتهم مجالس قد يُشْفَى بأحلامها الجهلُ

(شوقي: 247)

وقد استقر المعنى على ذلك إلى أن جاء العصر العباسي وأصبحت المقامة نوعاً أدبياً مفاده "أن يقف خطيب أو واعظ بين يدي خليفة أو أمير فيلقي عظته، وصارت في العصر العباسي تعني محاضرة أو حديثاً، سواء قام المتحدث أو قعد." (الشريسي: 5) هذا، وأول كتاب وضع في المقامات "هو مقامات بديع الزمان الهمداني وكان قصده أن يلقي درساً في علوم اللغة أو الأدب بأسلوب مشوق يشويه المرح". (شوقي: 247) وإلى هذا يشير شوقي ضيف إذ يقول: "ثم توسع العرب في معنى الكلمة فأصبحوا يطلقونها على خطبهم وأحاديثهم التي يقولونها في مجالسهم،...". (الشريسي: 5)

المقامات في الأدب النيجيري العربي

إن قراءة المقامات عادةً قديمة منتشرة بين دارسي اللغة العربية في نيجيريا وقلمًا تجد مدرسة وما في معناها من الحلقات العلمية إلا ويروج فيها تعلم المقامات، لأنّ تعلمها يشكل النضوج في مراحل التعلم والاستيعاب والإلتقان، فهما مفخر للمتعلم ومعلمه، كما أنّ المقدرة على توضيحها معيار مهارة الدارس ومدّته. هذا، وإن كان بديع الزمان الهمداني الرائد الأول لفنّ المقامات إلا أنّ الحريري ومقاماته أشهر لدى النيجيريين الذين يُقبلون على دراستها بنهم. وفي أواسط قبيلة اليوريا تعتبر إجادة فهم مقامات الحريري قمةً في التحصيل العلمي.

تجاوز تمسك النيجيريين بدراسة المقامات حدّ التفسير وتوضيح مضامينها خصوصاً بين اليورويين الذين ثملوا بالفن لدرجة أدت ببعض شيوخهم إلى العكوف في تأليفها على منوال ما وصلهم من رجالها، لاسيما القاسم الحريري. ويثبت التاريخ أنّ أول من تصدى لتأليف المقامات بين قبيلة يوريا هو مسعود بن عبد الغني أدّيباوي (ت: 2023) الإمام الجامع لمدينة أويو الذي وضع مقامة واحدة أسماها بالمقامة الأويوية، وتبعه محمد الأول بن عبد السلام الملقب بصاحب القرآن بمقاماته التي سماها مقامات الإلوري. وأتى بعدها أحمد بن يوسف بمقامته التي سماها مقامات بن يوسف، واقتفى أثرهم عبد البارّي أدّيباوي بمقاماته المسماة "كسوة العاري في مقامات عبد البارّي". ويشتمل تأليف كل من أحمد بن يوسف وعبد البارّي على ثلاثين مقامة حين تتضمن مقامات الإلوري على خمسين مقامة. وجميع المقامات وليدة المدّة بين 2003م و2017م إلا المقامة الأويوية التي رأت نور الحياة عام 1999م. (موديو أولاً: 41-42).

فاعلية المقامات كفنّ أدبيّ لدي يوريا

لم يعهد دارسو اللغة العربية في نيجيريا- وخاصة بين قبيلة يوريا- الكتابة الإبداعية سوى ما يصادفون في القرآن الكريم والأحاديث النبوية لكنهم يجدون متعة أدبية كبيرة في المقامات. ولعلّ السرّ في ذلك يرجع إلى عاداتهم الشاحنة بالفولكلور التي سماها العقاد بالمرددات الشعبية، (العقاد: 29) أو المأثورات الشعبية كما ترجمها معجم المصطلحات في اللغة والأدب. (مجدي: 474) كانوا يقصّون المرددات التي تتضمن دروساً وعبراً وحكماً. وكيفية سردها لديهم أن الصغار الذين لم تتجاوز أعمارهم اثني عشر عاماً يلتفون- في أغلب الأحيان- حول كبير مسنّ ليلاً في فناء يتلقون منه أقاصيص قصاراً وغالباً ما يكون ذلك وقت انتظارهم العشاء. ومثل هذا وغيره من المأثورات الشعبية هو ما جمعه الأستاذ إسحاق أوغنيبي في كتاب سماه "القصص الشعبية عن السلحفاة عند اليورياويين سكان غرب نيجيريا".

ومن هذا المنطلق وجدت المقامات أرضاً خصبة للنشأة والنماء لدى يوريا، وقد شجعتهم الظروف الموصوفة على الإقبال على كتابة المقامات، إضافة إلى ذلك أنّ قصر المقامات يروق أغلبية دارسي الأدب العربي لاسيما الذين لم يظفروا بالتعلم النظامي. ويُستنتج من كلّ هذا أنّ المقامات هي النواة الأساسية لعملية الابتكار الأدبي القصصي لدى الكتاب بين مسلمي بلاد يوريا، لأنّها تماثل تراثهم الشعبي.

نبذة عن الكاتب

هو محمد الأول بن عبد السلام، وقد اشتهر بلقبه (صاحب القرآن) وهو لقب أطلقه الناس على جدّه لحسن تلاوته للقرآن وملازمته له، وباللقب اشتهر أبو الكاتب كما اتخذه غيره من أبناء أبيه لقباً لهم. ولد بأوكي إيتا (Òkè-Ìtá) في إيتا-أجيا (Ìtá-Àjía) عَمَبَرِي (Gàmbàrì) إلورن عاصمة ولاية كوارا نيجيريا. كان مولده في حوالي عام 1973م. نشأ نشأةً إسلامية محضة بين أسرته وترعرع وترقى في كنف ورعاية والديه. بدأ التعلم الإسلامي مبكراً على عادة الإلوريين وتلقى القرآن سرداً مع بعض مبادئ العلوم الإسلامية والعربية في كتاب والده الشيخ عبد السلام. والجدير بالذكر أنّ محمد الأول لم يمر بأيّ مدرسة نظامية في حين التحصيل العلمي، بل كان ينتقل من معلم إلى آخر على عادة المتعلمين في القلم، وكان يلازم معلماً حتى إذا حقق رغبته عنده غادره إلى غيره، وقد ساعده على هذا وقادة قريته وقوة عزمه. وقد ساقته

تفلاته إلى كُدُونًا في شمال نيجيريا ووزارة حيث التقى بشيخ سوداني اسمه الدكتور إبراهيم مرتضى، ولهذا الشيخ تأثير إيجابي ملموس في صاحب القرآن. ورجع بعد سيره الطويل إلى مسقط رأسه في أواخر التسعينات من القرن الماضي وأسس بها مدرسة سماها مدرسة التعليم العربي والإسلامي وأصبحت المدرسة قبلة طلاب وعشاق اللغة العربية والدراسات الإسلامية. (أُونِكْنَهْتُ: 13-19).

عرض للمقامتين المختارتين

إنَّ عرض المقامين عرضاً كاملاً، بل ينحصر في الجانب الثري الذي تفتتح به كل مقامة، وذلك لأنَّ اهتمام هذا البحث يدور حول القصة وكيفية استخدامها مدخلاً إلى الفكرة التي يود الباحث بثها. هذا من جانبٍ، ومن جانبٍ آخر نبه شعيب أُولُوغَيْلِي في تقديمه للمقامات إلى "... أن الأنظار... توجهت إلى الجانب الشعري بالكثرة، حتى أن القارئ في الأدب العربي يظن أن الأدب مقصورٌ على الشعر فقط إلا أن هذه المقامات تثبت في الأذهان أن النثر يتمتع بالدرجة التي كان عليها الشعر من المتعة والعذوبة الأدبية". (عبد السلام: 9).

المقامة الخامسة الكُدُونِيَّة

حدثنا جبريل بن خالد قال وعزَّ بي وطني في بلدي، حتى تطَّيرت بنفسي في خلدي واطبت فنَّ البلاغة والأدب، ولم أجد به قضاء الأرب، وجعلت أقطع فراسخ الطريق، بلا حاجة إلى الرفيق، فساقني القدم إلى أن أكَدُنْتُ، لعلني أترى بها فأكدت، وما لبست فيها أياماً، حتى قَوَّضت للعودة خياماً، لحادثة وقعت بها المرح، وعز منها المخرج، يجترب في النهار قوم، ويطير في الليل نوم، يضرب على الأعناق، مع كلمة لا إله إلا الله بالأشداق، يراقون الدماء، ولا يراقبون الدماء، يقتل فيها المسلم مسلماً، كي يعدَّ ماله مغنماً، ويلقى الكافر الفاجر، ولا يستطيع أن يشاجر. فلما هدأت الحرب، وهاجت الكرب، هممت الرجوع، بعدما اتخذت فيها الربوع، وكنت بشدة الكآبة، على فاقة عند الإيابة، فألقت أبا الليب كآته من الحزن في اللهب. فقلت له ما عراك كما أراك فما بالك في بالك، فقال هودج الحمام في الفناء، وسحى الهمام إلى الفناء... فصرم شعرة، حين بلت الدموع نخرة، فقال هذا يوم الرثاء، لمن عابر إلى الفناء، لا يوم الإمتاح لمن ناول طرف الإناء، ثمَّ إلى مكانٍ استرجع... فقلت لا تُهْلِكْ نَفْسَكَ، وإنَّ القبرَ فوق الوُصف، فكيف أنت إنَّ وَاغَاكَ الأجل، هل يَغُصَمُكُ منه أرضٌ أو جبلٌ، فقال ما لي قدرة عليه، ولكن هذا ما أوليه،... ثمَّ ولأني قذالهُ، ومنعني وصالهُ، فعدت بعنسي إلى مسقط رأسي. (عبد السلام: 42-45).

المقامة العاشرة السَّنْفَرِيَّة

حدثنا جبريل بن خالد قال أسرى بي مأرب في ليلة داجية، على ناقةٍ داجية، على ناقةٍ ناجية، تسابق مباري الخيل، فبلغت سفنر بعد ثلث الليل، ورأيت فيها أجناساً، فاتخذت من بجدتها خليلاً، ليكون لي في كلِّ أمورٍ دليلاً، وإن كلمته بحاورني، وعلى المعاش يشاورني، فقال يا أنيسي، وإن لم تكن من جنسي، هل لك مع العلم حرفة، أو في الحيا وظيفة، من عمل داود أو صناعة موسى، لتقتني بها عند الشدائد والثؤسى، قلت ما لي غير حرفة المتقين، الذين تميَّزوا بين الرِّيب واليقين، يعني اتخذ التعليم مهنة، ولو يكاد يصبح معانة، وإن نلت منها طيب الغذاء، لا أحتاج إلى حسن اللباس والحذاء، فعلى الله أتكل، ومثلته أحتمل، ثمَّ قال لي أين أنت من حسن الصناعة، تكفي بها من المعارضة للدناءة، فقلت ما هي؟ قال حرفة الأنبياء والرُّسل، قلت أعني بيع الرِّطْبِ والذبل، قال رعيَّة الأغنام والأبقار، والاعتناء بها من الغلظة الأبقار، وأخذ بالقسم الصفا والمرورة، أن في البقرة الكوراء ثروة، أما القرن والعظم تتخذان ذرواً، وجملتها تجارة لن تورا أما اللحم بعد أن سيل يجمد، وأما اللحم والشحم حلال بالأكلي بمقتضي الشرع والعقل، وبالروث يحي الأرض المقحطه، ولأذاها مميطة، وإلى البول يخلج، لبعض أمراضٍ علاج، والجلد بعد أن دبخ، وبالنار طبخ، مضرور بنواجد قبل أن ينيط بمنافذ، واللبن إن لم ييكأ يجلب، ومن جنسها يحسب، كورها متحمل، وشعرها مستعمل، قد تتال منها الغنى والجدى، ما من عضو نتج سدى، قال جبريل بن خالد فلما عدت عليه البنان، وقد أكثر فيها البيان، فانحصر فيها من الإطالة حسيَّة النسيان والملالة...

فاق جبريل بن خالد منذ ما أتا معك في جميع الأبواب تتكلم بالحكمة والصواب، ولكن حططت في هوة الغي، بهذا الرأي، إنما الحر العفاف، من يرضاه العيش الكفاف، ومنذ ما تنظم أنتوهم، ليس التعليم كما تتوهم، إن المصاهرة على تعليم الصبيان، تبيخ مغفرة الرحمن، وأريتك حلا بهذا البلد، فاتخذت خلا ميين الرشد، بيد أنك ضل مغتر حين تشعر تفتت، وأفاركك بهذا السبب ولا أرفلك في هذا الشعب، فودعته بلا التجرب، قبل أن أعلم أنه أبو الليب. (عبد السلام: 65-69).

دراسة أدبية للمقامتين المختارتين

تبتدئ الدراسة بالنظر في مضمون المقامتين بغرض تناول القضايا الاجتماعية التي طرقتها وهذا مهم جداً لأنَّ اجتماعية الأعمال الإبداعية أمر واقعي، فإنَّ الكتاب، لاسيما الأدباء المبدعون، إنما يستوحون حواظهم من مجتمعهم ولا فرق في أن يكون ذلك عن وعي أم عن غير وعي. وحينما يمسكون أقلامهم ليكتبوا إنما يودعون أفكارهم ليتصل بهم القراء ويسبحون معهم في أفلاكهم الأدبية، وحتى الذين يبحثون في الأعمال الإبداعية عن القيم الذاتية والفنية ويفضلون إتقان التصوير وروعة التعبير لا يجنَّبون الأدب عن القيم الاجتماعية. ومن هذا القبيل كون المقامات فناً أدبياً، كما أشار إلى ذلك شوقي ضيف قائلاً: "وحتى المقامات التي كُتبت لتعليم النشأة أساليب الكتابة المنمقة أودعها أصحابها الحياة التي عاصروهم بصلاحتها وفسادها وحكامها وقضائها وأسواقها ومساجدها ووعاظها وأصحاب اللهو والمجون". (شوقي: 195) وعلى هذا المبدأ تنظر المقالة في القضايا الآتية:

الاغتراب بعد التحصيل

العادة السائدة بين دارسي اللغة العربية والدراسات الإسلامية في أوساط يوريا هي أن يتوجه من حصل بينهم مستوى علميا معترفا به إلى أرض غريبة طلبا للرزق والرفعة. وهذا ما حدث لراوي هذه المقامة إذ توجه إلى كدونا كما ورد في المقامة الخامسة حيث يقول: " وعز بي وطني في بلدي، حتى تطيرت بنفسي في خلدي واطبت فمّ البلاغة والأدب، ولم أجد به قضاء الأرب، وجعلت أقطع فراسخ الطريق، بلا حاجة إلى الرفيق، فساقني القدم إلى أن أكذنت، لعلني أترى بما فأكدت...". وهذا من خصوصيات المتعلمين بعد التحصيل، وبهذا الصنيع يسجل شيئا من عادة قومه العلماء.

حادثة الفتنة بمدينة كدونا

من أشد الفتن خطورة في نيجيريا الصراع الديني الذي يحدث لسبب تافه في أغلبية الأوقات، ومن المدن المشهورة بالفتن من هذا النوع مدينة كدونا في شمال نيجيريا التي توجه إليها الكاتب. ويبدو أنّ التي يشير إليها في مقامته "الكدونية" هذه هي التي وقعت سنة 2000م والسبب الذي أضرها هو الإعلان الرسمي بتبني الشريعة الإسلامية كالنظام القضائي في الولاية من قِبَل الحكومة (Shiklam). فلأنّ الأغلبية الساحقة من سكان الولاية مسلمون رأّت الحكومة أن الروح الديمقراطية تسمح لهم بتطبيق الشريعة الإسلامية مع مراعاة حقوق غير المسلمين في الولاية. أسفرت هذه المبادرة عن فتنة كبرى أثارها الأقلية المسيحية من مواطني الولاية، وما أن بدأت الفتنة حتى استغلها المجرمون لارتكاب أشنع الجرائم من القتل والنهب وحرق المباني، وإلى ذلك يشير الراوي إذ قال: "قوّضت للعودة خياما، لحادثة وقعت بها المرح". وقد حمي وطيس الاشتباكات بين مؤيدي الشريعة والمعارضين واستغل المتطرفين الموقف لارتكاب أشنع جريمة، وقد بلغ بهم التطرف حدّ التهليل (الله أكبر) بأرفع أصوات عند ذبح الناس كالذباب ولا يبالون، أهم مسلمون أم غير مسلمين، وإلى هذا يشير إذ قال: " يحترق في النهار قوم، ويطر في الليل نوم، يضرب على الأعناق، مع كلمة لا إله إلا الله بالأشداق، يراقون الدماء، ولا يراقبون الدماء، يقتل فيها المسلم مسلما، كي يعدّ ماله مغنما". شاهد الكاتب الفتنة الكبرى وأحزنته كما أفرغت لها مقامة مستقلة أودعها الحادثة المخيفة، وهذا الصنيع شاهد على مكانة الأدب كالوعاء الحقيقي لتاريخ قوم.

وكل ما سبق من النماذج مما تتضمنه المقامة الخامسة، وفي السطور التالية بعض ما تتضمنه المقامة العاشرة من قضايا اجتماعية. إنّها (المقامة السنفرية) مقامة توجيهية كرس فيها الكاتب العناية على إرشاد وتوجيه المتعلمين توجيهها حسنا يساعدهم على المعيشة الإيجابية المثمرة.

التزود بطرق حلّ للمعيشة

من الحقائق التي لا يعترها ريب أنّ من أكبر التحديات أمام علماء العربية والإسلاميات في ديار نيجيريا الحصول على الطريقة المأمونة لكسب العيش الحلال للحفاظ على الكرامة اللاتقة بهم، إلا أن ذلك من الصعوبة بمكان لأنّ النظام الإداري لا يراهم أهلا للتوظيف الحكومي ولا يوفر لهم المجتمع منفذا لكسب الحلال كما لا يتعلمون جرّفاً أخرى يسدون بها رمقهم، ونتيجة لهذا المأزق الاقتصادي يصبح معظم المتخصصين في العلوم العربية عالة على المجتمع متطفلين على موائد الأثرياء، ويحصلون على ما لا يسمن ولا يغني. فطن كاتب المقامة إلى حقيقة الظروف الاقتصادية المحيطة بالمتعلمين من هذا النوع وأودع هذه المقامة إرشادا وتوجيها قد يخرجهم من الضيق المحدث بهم، وبينهم على ضرورة التزود التام لكسب الرزق الحلال حيث يقول: "هل لك مع العلم حرفة، أو في الحيا وظيفه، من عمل داود أو صناعة موسى، لتقتني بها عند الشدائد والبؤسى...". فأجاب المسؤول بأنّه لا يحسن أبيا "غير حرفة المتقين، الذين تميّزوا بين الرّب واليقين، يعني أتخذ التعليم مهنة". وتلك الإجابة هي عين ما يعانيه الأغلبية من علماء اللغة العربية والإسلاميات. ومن الأسباب التي تحو بهم إلى ذلك عدم توجيههم أثناء تعلّمهم توجيها يساعدهم على التفكير الإيجابي خارج مهنة التعليم. وللتخلص من هذا المأزق تقترح هذه المقامة حلا جذريا قائلا: "أين أنت من حسن الصناعة، تكتفي بها من المعارضة للدناءة، فقلت ما هي؟ قال حرفة الأنبياء والرسل، قلت أتعني بيع الرّطب والذبل، قال رعيّة الأغنام والأبقار، والاعتناء بها من الغلّة الأبقار...".

النص السابق من المقامة السنفرية ينادي الدارسين إلى الاعتماد على الكدّ والجهد في سبيل التحصيل الاقتصادي بدون الاتكال على الأثرياء والتحايل على الناس باسم الدين لغرض سلبهم أموالهم، فأولى لهم أن يكتسبوا ويستغلوا الفرص المتاحة في الصناعة يستدرون بها دخلاً محترماً يصونون به كرامتهم. ويكونون بهذا نماذج حسنة للمتقدمين من العلماء، كما أشار إليه سيّد قطب ناقلا من كتاب لأستاذ عبد الحليم الجندي بعنوان "أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح في الإسلام" إذ يقول: كان أبو حنيفة خزايا، كما كان كثير من رجال الفقه بعده تجارًا وصناعًا. هذا الإمام الخفاف أحمد بن عمر بن مهير، أبوه تلميذ محمد والحسن صاحبي أبي حنيفة؛ وكان الخفاف يؤلف للمهتدي بالله كتاب الخراج؛ ويصنف كتبه العظيمة في الفقه في حين يعيش من خصف النعال. وهذا الكرابيسي يبيع الكرابيس أو الثياب الخام، وهذا القفال يخرج يده فإذا على ظهر كفه آثار، فيقول: هذا من أثر عملي في الابتداء (صناعة القفال)؛ وهذا بن قطلوبغا يعمل خياطاً. والحصاص شيخ زمانه ينتسب إلى العمل في الجص. ثم هذا الصقار (كان أبوه يبيع الأواني الصفيرية أي النحاسية) والصيدلاني (من بيع العطر) والحلواني (كان أبوه يبيع الحلوى) والدقاق والصابوني والنعال والبقالي والقُدوري وغيرهم كثيرون... (قطب 183)

والمقامة السنفرية مليئة بمثل ذلك التوجيه الذي عرضه سيّد قطب على قرائه بالنص المنقول، فحين يوجّه الكاتب النيجيري طلبة الدراسات العربية والإسلامية هذا التوجيه، من خلال فنّ المقامات، فإنّها لدعوة إيجابية نحو الاستقلال الاقتصادي والانحلال من صفوف العالة على أموال الآخرين والتطفل على موائد الأثرياء ونيل الكرامة. وتنتقل المقالة إلى النظر في إطار المقامات بغرض تناول خصوصيات الفنّ ليتّضح مدى نجاح صاحب المقامات في تطبيق مبادئ الفنّ. وحسب تعريف فنّ المقامة الوارد في بداية المقالة إنّ لها أركاناً أربعة هي:

الراوي: إنه عنصر أساسي في فنّ المقامة ويعني شخصا يسرد الحكايات التي تحيط بجميع حركات البطل في المقامة. تحتوي كل مقامة على حادثة معيّنة تمس بطلها ولا يقربنا إليها إلا الراوي، وهذا من طبيعة الفنّ من بديع الزمان إلى اليوم. والراوي لدى بديع الزمان هو عيسى بن هشام، ولدى الحريري الحارث بن همام، وهو سهل بن عباد عند البازجي، أما في مقامات الإلوري فهو جبريل بن خالد.

البطل: هو محور الحكاية في كل مقامة أو ما يسمى "نجم القصة" وحوله تدور النشاطات المقامية، ومنه تنبع الحكم والعظة والإرشاد أو أيّ ملحّة أدبيّة مما يكون الفكرة المقصودة في كل مقامة، ومعنى هذا أنه الشخصية البارزة في كلّ مقامة. البطل في مقامات بديع الزمان هو أبو الفتح الإسكندري، وفي مقامات الحريري أبو زيد السروجي، وفي مجمع البحرين لليازجي ميمون بن خزام، وفي مقامات الإلوري أبو الليب.

القصة: المقامة فنّ قصصي يعتمد على سرد الراوي ليتابع القارئ حوادث كل مقامة ويفهم مضامينها من الأهداف والفكرة، ومن هنا تأتي أهمية إتقان الكاتب لأسلوب السرد وقدرته على التعبير الرائع الجذاب الذي يشوّق القراء إلى متابعة جميع مقاماته من البداية إلى النهاية.

الأسلوب: ويراد به هنا أسلوب الفنّ القصصي لا أسلوب الكاتب الشخصي، وذلك لأنّ للمقامة أسلوبها الخاص. وأبرز ما تتميز به المقامة هو السجع، واستعمال المزخرفات اللفظية والمعنوية، من بديع وختم كل مقامة بملح أدبي أو وعظ ديني. ويتبيّن من هذا أنّ الحرية التي تُمنح لكاتب القصص الآخرين لا تمنح لأصحاب المقامات، لأنّ عليهم الالتزام بالسجع، وجزالة الألفاظ، وطريقة عرض خاصة، وإلى جميع ما تقدّم يشير حسن بن جابر المدري الفيغي في معرض حديثه عن المقامة: "هي حكاية قصيرة، تشمل كل واحدة منها على حادثة لبطل المقامة، يرويها عنه راوٍ معيّن تنتهي بمواعظ أو طرف أو غير". (الفيغي...). ومن خلال العرض السابق يتّضح أن مقامات الإلوري تستوفي كافة العناصر الفنيّة التي تعتمد عليها كتابة المقامة من حيث الإطار والمضمون.

ملحوظات:

مهما بلغت جودة عمل إبداعي فإنه لا يخلو من بعض الهنات والمآخذ لأن وظيفة النقد في العمل الإبداعي "... تتلخص في تقويم العمل الأدبي من الناحية الفنيّة، وبيان قيمته الموضوعية، وقيمه التعبيرية والشعورية، وتعيين مكانه خط سير الأدب، وتحديد ما أضافه إلى التراث الأدبي في لغته، وفي العالم الأدبي كله، وقيام مدى تأثيره بالحيط، وتأثيره فيه...". (قطب: ب) (7) وعلى هذا الأساس، إنّنا نشير إلى بعض هذه الملحوظات تقديراً لجهد صاحب المقامات، ولكي يستدركها حين يراجع العمل، لا قصداً إلى النيل من العمل أو الخطّ من قدره.

التركيز على الراوي أكثر من البطل

من فنيّة المقامات أن يقتصر دور الراوي على سرد الحكاية في حين تقع الحركة والأنشطة من قبيل البطل، وهذا ما يوجد في المقامات المشهورة السالفة الذكر، ولكن النص الذي تتعرض هذه المقالة لمناقشته يعطي أكبر دور لجبريل بن خالد في حين يأتي البطل أبو الليب في خاتمة المقامة لمجرد عرض الدروس أو العبر المستفادة من السرد.

برودة النص من حركة البطل

المتوقع في المقامات من وجهة الفنّ هو أن يكون البطل منشئ الحادثة الرئيسيّة، ويسترعي انتباه بقية الأشخاص إلى نفسه، لا أن يحكي الراوي الحادثة حكاية جرداء. ومجلب النظر في مقامات الهمداني والحريري ومجمع البحرين هذا الملحوظ بكلّ وضوح إذ نرى أبا الفتح الإسكندري في المقامة القريضية يتصدى لمناقشة الأدباء الذين لم تسبق لهم معرفته (أبي الفضل: 8) وتحذاهم في موضوع المناقشة حتى اكتشفوا قيمته الأدبية، والأمر كذلك لدى الحريري في مقامته الصنعانية حيث رأينا أبا زيد السروجي يلفت الأنظار إلى شخصيته بوعظه المثير في نادي الأدباء. (الشريسي: 4). وإذا أتينا إلى البازجي في مقاماته مجمع البحرين رأينا كيف احتال ميمون بن خزام على مضيفيه الذين أظهروا له العطف وأجزلوا عليه العطاء لما استعطفهم في تمويل زفاف ابنه في المقامة الثانية الحجازية، (البازجي: 21-25). إنّ التعرف على البطل في المقامات المشار إليها كان عن طريق أنشطته وليس عن طريق إيراد للحادثة من عند نفسه، كما ورد في مقامات الإلوري.

فقدان الاحتيال في التخلص من مآزق

إنّ أهم ما يميّز المقامة عن غيرها من الفنون الأدبيّة أن بطلها دائماً يجد نفسه إزاء مآزق من مآزق الحياة، ويلجأ إلى الاحتيال والخداع كي ينجو من المآزق، وقد أوضح الفاخوري جميع خصوصيات الفنّ في تعريفه - كما سبق أن أوردناها - حيث قال: "وبطلها رجل أحكم التحيل وقصر همه على تحصيل الطفيف من الرزق، فكانت أخبارها كلها تدور حول الكدية والخداع، والاحتيال والتمويه... وإظهار البراعة في التخلص من مآزق الحياة عن طرق ملتوية...". (الفاخوري: 731). إنّ النص المختار لم يستوف الصفات التي وضعها الفاخوري، إذ الذي يترأى للقراء فيه مجرد السرد العادي من بداية المقامتين إلى نهايتهما. ليس هناك ذلك التنكر والتمويه الذي يُشوّق القراء إلى متابعة السرد بنهم، كما يُفتنّد التحيل في طريق التخلص بعد الوقوع في مآزق، وهذا طبعاً ينقص من تكييف نصوص المقامتين من حيث التصوير والفنيّة.

النتائج والمقترحات

تنتهي المقالة إلى بعض النتائج أهمها ما يلي:

أ- أنّ فنّ المقامات في الأدب العربي، وإن كان قد أصبح شبه منبوذ، لم تزل قيمته معترفاً بها في الساحة الأدبية، لما يقوم به من الحفاظ على التراث العربي من القلم إلى الآن.

ب- أن من عادة قبيلة يوريا سرد الأفاصيص لصغارهم تحت ضوء القمر تسلية لهم في أثناء انتظارهم العشاء، وبهذا صادفت المقامات فيهم أرضا خصبة يستغلونها لتنشئة الصغار تنشئة أخلاقية.

ج- أن مقامات الإلوري، كغيرها من المقامات، سجلت في طياتها حوادث اجتماعية تساعد على فهم الوقائع التاريخية في دولة نيجيريا عامة، وفي قبيلة يوريا خاصة.

د- أن فنّ المقامات تصلح لتطوير الأعمال الإبداعية كغيره من الفنون الأدبية وتقرّب إلى القراء الشعور الذاتي مستخدما جميع الأدوات التصويرية بطريقة جذابة شيقة. وبناءً على هذا، تقترح هذه الدراسة أن يتزود دارسو العربية الراغبون في فن المقامات بالمؤهلات الأدبية المناسبة وأن يكونوا ملتزمين بجميع متطلباته مع الوعي التام بأنّ العمل الإبداعي وليد المجتمع ووعاء العادات البيئية، وبالتالي يجعل الكتاب نصب أعينهم أنّهم يصوّرون مجتمعهم عندما يعرضون عواطفهم، وأن يحكموا العناصر الفنية المناسبة لأعمالهم. وذلك لأن ما يسردون يفيد الجيل الحاضر والذين يأتون بعدهم، ولذا يجب أن يكونوا ملتزمين بالشروط الموضوعية للنتاج الإبداعي.

الخاتمة:

فنّ المقامات قديم في الأدب العربي وقد نشأ كفنّ ترفيهي حيث يقصّ الراوي قصته على مسمع جماعة في مجالسهم المختلفة بغرض إظهار المقدرة اللغوية وإبراز الملح الأدبي، وهي شبيهة بالقصص الصغيرة في الأدب المعاصر من حيث الحجم والمضمون. وقد أقبل دارسو العربية في نيجيريا، لاسيما البيورويون منهم، على إحياء الفنّ في أوساطهم، وهذا شاهد على أنّ الفن يستردّ نشاطاته ويؤدي دورا اجتماعيا مهما بينهم. ومقامات الإلوري المستخلص منها النموذجين المدرسين مبادرة طيبة ومحاولة قيّمة جادت بها قريحة الشيخ محمد الأول صاحب القرآن، ومكان هذا الكاتب وعمله في سير الأدب العربي المعنيّ في الميدان وإن كان قد سبقه في الميدان الإمام العام لمدينة أوّيو. وما يميّزه عن غيره أنّه لم يتعلّم تعلّمًا نظاميًا بل اكتسب ما اكتسبه بالمواظبة والتفرغ للتعلّم على النظام التقليدي الذي يُلزم الطالب التنقل بين العلماء لتعلّم ما يتخصص فيه كل منهم. والنظر الفاحص لمقامات الإلوري يبدي بكل جلاء فاعلية المقامات كفنّ قصصي بين يوريا في نيجيريا. هذا، "وإن كان هذا النمط من التأليف قد تجاوزه الزمان وطويت صفحته بظهور القصة... إلا أنه يبقى محطة من محطات تطور النثر العربي..." (اليازجي: 14). وخصوصا في الأدب النيجيري العربي.

المصادر والمراجع:

John Shiklam, The Unending Cycle of Violence in Kaduna, thisdaylive.com, retrieved 24/08/2022, 10:26pm

إبراهيم موديبوأولا جنيد، فن المقامات في بلاد يوريا: دراسة تحليلية، بحث مقدم تكميلا لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه، قسم العربية والفرنسية، جامعة ولاية كوارا نيجيريا، 2021م،

أبي الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى، مقامات بديع الزمان الهمداني، بيروت-لبنان، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، 2003م.

أُونِكْنَهْ، عبد الواحد عبد الرؤوف، البنية الإيقاعية في القصائد الواردة في مقامات الإلوري لمحمد الأول عبد السلام صاحب القرآن "دراسة إحصائية تحليلية" بحث مقدّم إلى قسم العربية والفرنسية للحصول على درجة الدكتوراه عام 2021م.

الشريسي، أبو العباس أحمد بن المؤمن القيسي، المرجع السابق، ص: 5

الشريسي، أبو العباس أحمد بن المؤمن القيسي، شرح مقامات الحريري، بيروت لبنان، دار الفكر، د.ط، 2002م.

الشريسي، أبي العباس أحمد بن المؤمن القيسي، شرح مقامات الحريري، بيروت لبنان، دار الفكر، 2002م، المجلد الأول.

ضيف، شوقي، النثر ومذاهبه، مصر، دار المعارف، الطبعة السادسة، 2015.

ضيف، شوقي، في النقد الأدبي، القاهرة، دار المعارف، الطبعة التاسعة، د.ت.

عبد السلام، محمد الأول، مقامات الإلوري، كنو، نيجيريا، دار الأمة، الطبعة الخامسة 2011م.

العقاد، عباس محمود، خواطر في الفنّ والقصة، بيروت-لبنان، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، 1973م.

الفاخوري، حتّا، تاريخ الأدب العربي، بيروت-لبنان، المكتبة البوليسية، طبعة ثامنة، د.ت.

الفيفي، حسن بن جابر المدرّي ، Retrieved 28/08/2022 faculty.ksu.edu.sa

قطب، سيد ، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، القاهرة، دار الشروق، الطبعة العاشرة، 2013م.

قطب، سيد، العدالة الاجتماعية في الإسلام، بيروت، الطبعة السابعة، 1967م.

مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، بيروت-لبنان، مكتبة لبنان، الطبعة الثانية، 1984.

مجدي، وهبة وكامل، المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، بيروت، الطبعة الثانية، مكتبة لبنان، 1984م.

اليازجي، الشيخ ناصيف، مجمع البحرين، دار نظير عبود، 1993م.